المحاضرة الثالثة: المذهب المالكي ببلاد المغرب

مقدمة

1- دخول فقه الحجاز إلى بلاد المغرب(ق 01-03ه/06-08م).

أ-المرحلة المشرقية (فقه أهل المدينة).

ب –المرحلة المغربية (الفقه المالكي).

2-المذهب المالكي في المنظومة الفقهية المغربية

أ- التنوع المذهبي

ب- أسباب وعوامل التمسك بالفقه المالكي

ج- مكانة المدونة في الفقه المالكي

خاتمة

قائمة المصادر والمراجع

مقدمة:

اختار المغاربة منذ أربعة عشر قرنا المذهب السني المالكي مذهبا رسميا للمنطقة، إضافة إلى اختيارات الأمة المتمثلة في العقيدة الاشعرية والتي اختصت بها النخبة العلمية والتصوف السني. لذا ظلت المالكية رمزا من رموز الوحدة المذهبية الدينية والاصالة الحضارية. بل تعدت ذلك الى ان صارت عنصر من عناصر الهوية المغربية عامة في القرون الوسطى الى يومنا هذا. كما أضحى هذا المذهب الفقهي الآتي من أعماق الحجاز أساس البناء الحضاري والثقافي لأهل المغرب. من ثمة يعتبر الاهتمام بتاريخ المنظومة المالكية في بلاد المغرب و الاندلس من اوليات عمل الباحث في العصور الوسطى والامر ذاته يطرح اكثر من استفهام عن سبب تمسك البربر الكبير بهذا المذهب .لأجل ذلك انكب الباحثون والعلماء قديما وحديثا على التأصيل لدوافع تشبث مسلمي البلاد الإسلامية الغربية بالفقهالمالكي ،وهو مقصودنا من خلال محاولتنا البسيطة في تسليط الضوء عن فترة وطريقة تسرب أفكار و تخريجات المذهب السني المنسوب للامام مالك بن انس (93-179 ه)كما ان اجتهاداتنا دفعت بنا الى تأصيل العوامل التي كان من شأنها احتواء الذهنية المغربية وتوجهيها نحو مذهب دار الهجرة.

تكاثرت وتنوعت الدراسات الفاحصة للتواجد المالكي في بلاد المغرب ككل وعلى وجه الخصوص بإفريقية وبالمغرب الأقصى، اذ ان الدراسة المتكاملة حول المذهب نفسه بالمغرب الأوسط لم تظهر بعد و كان من طموحنا تحقيق و لو جزء منه ،غير ان الوقت و الأعمال الصفية تداهمنا، لذا صببنا جم اهتمامنا حول تغلغل الفكر المالكي الى الأوساط المغربية (المغارب الثلاثة) العامة.

وقد انبثقت عن تبنينا هذا المشروع التنقيي، رغبة في احتضان وسد الثغرة الشاغرة في المجال الديني الفقهي في التاريخ الوسيط للغرب الإسلامي، منبعها التساؤلات حول الطريقة والأسلوب الذي به تسرب فقه المذهب الذي طالما سيطر على توجيهات المغاربة المذهبية والذي لم يذعن لأي محاولة اقتلاع وبقي الى يومنا هذا ،فما السر في ذلك ؟و للوصول الى التأصيل السليم ،كان لا بد لنا من التطلع الى أحوال المغرب الثقافية من الحين الى الأخر.

فضلا على ذلك أملت علينا طبيعة المادة العلمية إعمال التحليل والمقاربة التاريخية في إطار ما يمكن تسميته بالمنهج الاستقرائي و لنفس السبب هيكلنا بحثنا بخطة تدريجية مبينة على عناصر متفرقة و متكاملة أولها حول دخول الفقه الحجازي إلى بلاد المغرب بما فيه الفقه المالكي من القرن الأول إلى غاية القرن الثالث للهجرة ،و قد قسم هذا العنصر إلى عنوانين جزئيين ,تمحورا حول قضية الارتباط المغربي بالمشرق على المستوى الديني .بينما صب العنصر الثاني في صلب الموضوع اذ هو الذي تناولت فيه التنوع المذهبي الذي زخرت به البيئة المغربية لننتقل مباشرة إلى رصد مجموعة من العوامل التي كان من شأنها -حسب التخريجات الخاصة - ترسيخ وتجذير الحضور المالكي ببلاد المغرب الإسلامي.

أما فيما يخص المصادر الملتجأ اليها فهي في الأساس:

كتب الطبقات والتراجم:

-الخشني. أبي عبد الله محمد بن حار ث بن أسد القيرواني الأندلسي: **قضاة قرطبة وعلماء افريقية**.

-عياض،بن موسى بن عياض السبتي :**ترتيب المدارك وتقريب المسالك لمعرفة أعلام مذهب مالك**.

-المالكي ،أبي بكر محمد بن عبد الله**: رياض النفوس في طبقات علماء القيروان وافريقية وزهادهم ونساكهم وسير من أخبارهم وفضائلهم وأوصافهم .**

وهي المصادر التي أتت بالإفادة العظمى للبحث باعتبارها مؤرخة لطبقات العلماء والفقهاء والعباد المالكيين الأوائل.

إضافة الى الزاد المعرفي التاريخي الكثيف الذي قدمه لنا:ابن خلدون، أبو زيد عبد الرحمان بن محمد في كتابه: **ديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر.**

إن الصعوبات التي كان من شأنها تعقيد عملية البحث كانت بالأساس تحديد الإطار الزماني لشذرات التغلغل المالكي بالمقارنة بين المصادر الطبقية في حد ذاتها وهي عملية عسيرة

تحتاج إلى الجلوس غير أن ارتباطاتنا الذهنية بمذكرة التخرج وتعدد البحوث الصفية في المقاييس الأخرى. لم تسمح تضافر قدراتنا الفكرية كليا وما من صعب إلا جعله الله -عز وجل-سهلا و يسره.

1-دخول فقه الحجاز إلى بلاد المغرب (ق 01-03ه/06-08م):

أ-المرحلة المشرقية (فقه أهل المدينة)[1]:

تدفقت المنظومة الدينية الإسلامية في إطار الفتح العسكري بمبادرة الزهاد والعباد الحجازيين الذين سعوا إلى نشر مبادئ الإسلام النبيلة. ونظرا لحساسية الفترة الزمنية التي تم فيها فتح بلاد المغرب لما عرفه المسلمون من انقسامات سياسية ومذهبية لابد لنا من تسليط الضوء على المكونات الذهنية والمذهبية للجماعة العاملة على توطيد الدين الجديد بالبلاد وقد تخضع الحركة نفسها تاريخيا إلى التقسيمات التالية: إن المتأمل في كتب الطبقات والتراجم المتعلقة بالقرون الأولى للتواجد الإسلامي ببلاد المغرب (من ق01إلى غاية ق02ه)يلاحظ أن الخطوات الممهدة لانتشار المذهب المالكي بنفس الجغرافية هي الجالية الصحابية الزاهدة[2]التي رافقت موجات الفتح الاجتماعي أمثال:

*-عبد الله بن عباس : وهو ابن عم الرسول -عليه الصلاة والسلام-،" من العلماء بكتاب الله عز وجل و تفسيره ومحكمه وناسخه و منسوخه. وعالما بالسنة وجميع العلوم الشرعية"[3].

*أبو عبد الله بن عبد الله بن عمر بن الخطاب .الذي كان "من أهل الورع و العلم بالكتاب و السنة "كما"كان يحفظ ما سمع من رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا حضر"[4].

*عبد الله بن الزبير

---

[1] يتعذر علينا تأطير الرحلة المشرقية الى المغرب أو شقيقتها الى المشرق زمنيا لأنهما لم تنقطعا حتى في العصور المتأخرة.

[2] سماهم المالكي في تقسيمه الطبقي بطبقة العباد.

[3] أبي بكر محمد بن عبد الله المالكي: رياض النفوس في طبقات علماء القيروان وافريقية وزهادهم ونساكهم وسير من أخبارهم وفضائلهم وأوصافهم،تحقيق ومراجعة:بشير البكوش ومحمد العروسي المطوي ،ط2،لبنان :دار الغرب الإسلامي ،1994،ج1،ص60-61.

[4] شارك في الحملة الفاتحة لعبد الله بن أبي سرح ومعاوية بن حديج،وكان فقيها ومحدثا في آن واحد ،المصدر نفسه،ص61-62.

*أبو محمد بن عبد الله بن عمرو بن العاص. وصولا إلى عقبة بن نافع،[5] الذي جمع بين الشق الديني والعسكري.

والملحوظ أن هذه الحملة التفقيهية جمعت بامتياز طبقة من العلماء و الفقهاء و المحدثين التي نقلت معها الحديث النبوي الشريف وفقه الرسول عليه الصلاة و السلام وتعاليمه وهو ما يمكن الاصطلاح عليه بفقه أهل المدينة الذي انبثق من أحاديثه -عليه الصلاة و السلام- وسيرته إلى جانب البيئة و الحوادث المرتبطة بالمدينة المنورة خاصة وشبه الجزيرة العربية عامة إستقر جل هؤلاء بمصر والقيروان خاصة ضمن حملة عبد الله بن أبي سرح.[6]

إن الحديث عن تجذر مسلك أهل المدينة واستقامة دين البربر في المغارب الثلاثة -افريقية والمغرب الأوسط والأقصى-يلزمنا ذكر البعثة العمرية[7]،التي بسطت البلاد و عمل أعضاؤها على تغذية عقول المغاربة المنحرفة أو الجاهلة وأرشدتهم الى أعمدة العقيدة الإسلامية المدنية.

فضلا على ذلك. وصف لنا المالكي في كتابه "رياض النفوس " أعضاء بعثة عمر بن عبد العزيز مستهلا ب "ذكر العشرة التابعين الذين بعثهم امير المؤمنين عمر بن عبد العزيز رضي الله تعالى عنه ، ليفقهو أهل إفريقية ويعلموهم أمر دينهم"[8]،فإلى جانب الفتح العسكري لم يغفل الأمراء و الخلفاء الأمويين على تثقيف البربر دينيا وبث في أنفسهم سيرة النبي العطرة ومذهب أهله في المغرب خلال القرن الأول للهجرة .

ويمكن حصر هؤلاء الأعضاء في القائمة التالية[9]:

---

[5]للاستزادة مراجعة:نفسه،ج1،ص106-108.

[6] ان التقاء المغاربة بفقه المدينة كان بادئ الأمر بتعايشه مع الطبقة المشرقية المدنية على الأراضي المغربية وهو الطور الأول لتاريخ المالكية بالمغرب قبيل ظهورها بالمشرق.

2نسبة لعمر بن عبد العزيز(61-99هـ)ثامن الخلفاء الأمويين ،خامس الخلفاء الراشدين من حيث المنظور السني،سير امارة دير سمعان عهد الخليفة الأموي عبد الملك بن مروان ،عمه،وبقي واليا عليها الى غاية 86هـ

[8]نفسه،ص99

[9]نظرا لتبحر موضوع البحث والاهتمامات البحثية المتشعبة يصعب علينا الاتيان بتراجم هؤلاء.

-أبو عبد الرحمان الحبلي

-سعد بن مسعود التجيبي

-إسماعيل بن عبيد الأنصاري:[10] يعرف بتاجر الله وهو مؤسس جامع الزيتونة بالقيروان صحب جماعة من الصحابة رضوان الله عليهم أجمعين ؛كعبدالله بن عمر وابن عباس وعبد الله بن عمرو بن العاص ،وروى عنه من أهل إفريقية ؛بكر بن سوادة الجذامي
وعبدالرحمان بن زياد بن أنعم وكان من سكان القيروان ركب البحر في غزاة عطاء بن رافع فغرق وهو متقلد المصحف فختم الله عزوجل اعماله بالشهادة وكان ذلك سنة 107ه[11]ـ

-عبد الرحمان بن رافع التنوخي

-موهب بن حي المعافري[12]

-حبان بن ابي جبلة القرشي

-بكر بن سوادة الجذامي

-أبو سعيد جعثل بن عاهان

-إسماعيل بن عبيد الله بن أبي مهاجر : وهو والي عمر بن عبد العزيز على افريقية والمغرب ،ويذكر ابن حبان في مشاهير علماء الأمصار أنه كان من صالحي أهل الشام وخيار الدمشقيين، وكان قد ولاه عمر بن عبد العزيز جند افريقية ومات في خلافة مروان سنة 132هـ ،وذكر المالكي في **معالم الايمان** أن عمر بن عبد العزيز استعمله على أهل افريقية ليحكم بينهم بكتاب الله وسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم ،ويفقههم في الدين وقد روى رحمه الله عن عبد الله بن عمرو بن العاص وفضالة بن عبيد وجماعة من التابعين،أما الرواة عنه فقد شحت المصادر بذكرهم واكتفت من أهل الشام بذكر أبي عمرو الأوزاعي

---

1 "من أهل الفضل والعبادة والنسك والإرادة،كثير الصدقة والمعروف مع علم وفقه"متشبع بالفقه النبوي وهو صاحب مسجد الزيتونة بالقيروان.نفسه،ص106-107.

[11]نفسه ج1،ص106-108.

[12]هو عبد الرحمان الحبلي كانت افادته بالمغرب جليلة وثمينة،نفسه :ص99-100.

إمام أهل الشام في الفقه وسعيد بن عبد العزيز التنوخي ،ومن أهل افريقية بذكر زياد بن أنعم.

-طلق بن حابان

بعد التفحص الدقيق يظهر لنا العنصر الأعجمي غالب على عناصر هذه الفئة الدينية التي يكتنفها الكثير من الغموض. غير أن العامل الشامل لهم يتمثل في ارتوائهم بالحديث النبوي الشريف،أما عن الصحابة أو التابعين، وكانو ذو اتصال وثيق بفقه المدينة وفقه الرسول عليه الصلاة والسلام.

وبعد ظهور الامام مالك في الحجاز، وتبلور رؤاه الفقهية بها ،إلى أن كونت مذهبا مستقلا، ارتوى بمعارفه الكثير من المشارقة الذين تسببوا في نقله الى بلاد المغرب في اطار رحلاتهم العلمية، او اضطهادهم وفرارهم السياسي .فكانت البؤرة الأولى لاستقرار مذهب مالك بمصر، ثم تدفق الى افريقية في القرن 02هـ.

ب المرحلة المغربية (الفقه المالكي)[13]:

شكلت الرحلة العلمية للإلمام بالعلوم الشرعية أحد عوامل انتقال المذهب المالكي إلى المغرب .والواقع أن الرحلة لطلب العلم ضئيلة جدا إذا ما قورنت بأسفار الحج قصد المجاورة و التي كان جزء من أصحابها يعودون منها محملين بالفقه المالكي المدني بينما الجزء الآخر يتوفى في طريق العودة[14].

تشير المصادر المالكية إلى أن أول مغربي أخذ عن الإمام مالك هو أبي محمد عبد الله بن فروخ[15]،الذي لقبه صاحب المذهب ب فقيه أهل المغرب "فقد لقي مالكا ابن أنس وسمع منه وتفقه على يديه ؛وعليه إعتمد في الحديث و الفقه و بصحبته اشتهر ،وكان ربما مال إلى

---

[13]نلاحظ أن أوائل المالكيين بالقيروان من أصول مشرقية ليأتي فيما بعد دور المغاربة في ترسيخ المذهب المالكي عن طريق تعاليم الامام مالك في اطار الرحلة العلمية الى المشرق وسفيان الثوري وكذا الامام أبي حنيفة.

[14]مراجعة أبي عبد الله محمد بن حارث بن اسد الخشني القيرواني الاندلسي قضاة قرطبة وعلماء افريقية .نشر و تحقيقالسيد عزت العطار الحسني ،ط2: دار مكتبة الخانجي :مصر ،1994م

[15]فارسي الأصل ومغربي المنشأ،له رحلة الى المشرق ،وأخذ عن سفيان الثوري.

قول أهل العراق إذا تبين له أن الصواب في قولهم"[16]مع اعتبار ميله إلى الاستدلال و النظر و القياس[17]

كما أن أبا القاسم الزواوي نموذج مغربي محلي أخذ عن الإمام المالكي[18]

من حملة الفكر المالكي إلى المغرب أيضا نجد أبي زكريا يحي بن السلام بن أبي ثعلبة البصري التيمي، الذي عاصر إمام المذهب وأخذ عنه، كما أنه في إجابة عن سؤال موسى بن معاوية الصمادحي حول الإيمان قال:"أدركت مالكا وسفيان الثوري و غيرهم يقولون الإيمان قول وعمل"[19].

بعد تعلق المغرب الشديد بالمشرق دينيا و ثقافيا بدت بوادر الانفكاك عنه بظهور طبقة من الفقهاء المغاربة و المصريين الذين طبعوا فقههم المحلي بصبغة ميزته عن شقيقه المشرقي ,وقد حسم هذا التحول كل من :

-البهلول بن راشد الحجري الرعيني(128-183هـ) سمع عن مالك وسفيان الثوري و الليث وله ديوان في الفقه المالكي-الثوري[20].

-أبو عبد الرحمان عبد الله بن عمر بن غانم بن شرحبيل بن ثوبان الرعيني الذي صاحب مالكا و مارس القضاء بإفريقية[21],

وفي المرحلة المغربية المتأخرة نعثر على أسد بين الفرات[22],الذي هو إفريقي المنشأ تعلم بها الموطأ, ثم التقى بالإمام مالك في رحلته إلى المشرق وصاحبه ليعود إلى بلاده[23].كثيرا ما أشيع عن أسد بن الفرات ميوله إلى القياس لكن الحقيقة غير ذلك ,إذ يروي لنا المالكي

---

[16]المالكي :رياض النفوس، ج1،ص181.

[17]المصدر نفسه، ج1،ص176-177.

[18]المالكي:رياض النفوس، ج1،ص248.

[19]نفسه، ج1،ص191.

[20]نفسه، ج1،ص200-201.

[21]نفسه، ج1،ص215.

صوله مشرقية،تنسب اليه "الأسدية "لكنها في الواقع أسئلة طرحها على ابن القاسم –الفقيه المصري-،فدون إجابات هذا الأخير في الكتاب

[22]نفسه،نفسه: ج1،ص261.

[23]صور أسد بن الفرات على أنه شحيح التعاطي الفقهي خاصة مع منافسيه أمثال الامام محمد بن سحنون.نفسه، ج1،ص254.

حادثة له مع أصحابه ؛كانوا يرسلونه إلى مالك ليستفسر عن حكم النازلة المفترضة إلى أن مل الإمام وقال له "سلسلة بنت سلسيسلة:إذا كان كذا وكذا،كان كذا و كذا ،إن أردت هذا فعليك بالعراق"[24],وبالتالي فإن إطلاله على الرأي و القياس كان من باب تأثير جماعته المقربة .

على العموم ،إن الواضح في حركة المذهب المالكي تجاه بلاد المغرب –إفريقية خاصة- ،بإسهام العقول المغربية يبتدأ مع الطبقة الثانية لتراجم فقهاء المذهب أمثال علي بن زياد العبسي التونسي ,وابي القاسم الزواوي- آنف الذكر-والحارث بن أسد القفصي

أما استقرار الفقه المالكي كمنظومة واضحة المعالم بنفس المنطقة ، يمكن التأصيل له ابتداء من الطبقة الرابعة بأعمال ابي سعيد سحنون بن سعيد وموسى بن معاوية الصمادحي ، ويتعزز الموقف على يد محمد بن سحنون ومحمد بن إبراهيم بن عبدوس في الطبقة الخامسة[25] ، كل هذا في إطار التعايش المذهبي السني[26].

2- المذهب المالكي في المنظومة الفقهية المغربية :

أ - التنوع المذهبي[27] :

تبين لنا مما سبق تحليله ان المغاربة كانوا قبل نشأة المذاهب الفقهية على مذهب السلف واهل الحديث ومنهج الصحابة والتابعين الذين تجشموا الصعاب للوصول إلى تلك البلاد النائية لإبلاغها أحكام الدين وشرائع الإسلام.

فقد كانت عقائدهم وعبادتهم ومعاملاتهم تنبع وفق ما أرشدهم إليه هؤلاء الفاتحون مما حملوه معهم من كتاب الله وسنة رسول الله وما تواتر عليه عمل السلف الصالح.

---

[24] نفسه،ج1،ص256-257.

[25]وكل من الفقهاء المالكيين الذين عاشوا في القرن الرابع هـ/09-10م.

2دخلت مع الجوش الفاتحة المتأخرة جماعات من الأحناف والشافعية والفرق المعتزلة،ودليل ذلك وجود إشارات في كتب الطبقات والتراجم المغربية المتقدمة عن تلاقح فسيفساء من الإيديولوجيات المذهبية السنية وغير السنية والكلامية.مراجعة:أبي العرب تميم،طبقات افريقية،الخشني:علماء افريقية استقر المذهب المالكي وباقي الاتجاهات الفقهية والكلامية بالمغرب انطلاقا من ق03هـ/09م.مراجعة دراسة صفية حول طبقات علماء افريقية [27]للخشني.

واستمر المغرب الواسع على هذا الحال حتى ظهور المذاهب الفقهية التي وفد منها مذهب الكوفيين في العهد العباسي على يد الولاة والقضاة العباسيين ، فقد قدم فريق من أهل المشرق من العلماء والفقهاء ممن تأثر بفقه الإمام أبي حنيفة وأصحابه إلى بلاد المغرب وعلى راسهم عبد الله بن عمر بن فروخ الفارسي المتوفي سنة 176ه ، أسد بن الفرات صاحب الاسدية المشهورة في المذهب المالكي واحد تلاميذ مالك البارزين الذين سمعو الموطأ مشافهة عن مالك والذي ذهب إلى العراق فلقي أبا يوسف ومحمد بن الحسن الشيباني ولما تولى قضاء القيروان كان يقضي بمذهب ابي حنيفة فهو اول من ادخل المذهب الحنفي إلى المغرب

وقد تمذهب به كثير من العلماء بالأندلس وإفريقية منهم عبادة بن علكدة الرعيني من اهل قرطبة ، ومحمد سليمان بن تليد المعافري من أهل وشقة والذي كان مفتيا بها وغيرهما .

وقد استمر المذهب الحنفي في المغرب إلى حوالي سنة أربعمائة هجرية حيث قال صاحب الترتيب "وظهر مذهب أبي حنيفة ظهورا كثيرا إلى قريب من أربعمائة عام ثم تقطع منها "[28]

ويزكي ما أشرنا إليه من تنوع العقائد السنية شهادة المقديسي في قوله : " وبسائر المغرب إلى مصر ، لا يعرفون مذهب الشافعي وحده إنما هوأبو حنيفة ومالك رحمهما الله (...) فمذهب مالك وقراءة نافع وهم يقولون لا نعرف إلا كتاب الله وموطأ مالك "[29]

ب ـ أسباب وعوامل التمسك بالفقه المالكي :

وفي الوقت نفسه كان المذهب المالكي ينتشر في كثير من بيوتات المغرب وافريقية ، حيث وصل إليها عن طريق تلاميذ مالك الكبار الذين رحلو إليه مبكرا أمثال عبد الله بن غانم وعلي بن زياد التونسي وعبد الرحيم بن أشرس ، فهؤلاء وغيرهم هم من أدخل مذهب مالك

1عياض بن موسى بن عياض السبتي:**ترتيب المدارك وتقريب المسالك لمعرفة أعلام مذهب الامام مالك**،تقديم وتعليق:محمد بن تاويت الطنجي،الرباط:منشورات وزارة الأوقاف و الشؤون المغربية،1965م،ج1،ص31.

2شمس الدين أبي عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر البناء الشامي المقديسي البشاري:**أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم**،تحقيق:دي غوجي،ط2،لندن:منشورات بريل،1906م،ص236.

إلى المغرب ونشروه فيه وبثوه في عقول المغاربة وقلوبهم ، فتلقوه بقبول حسن وامتزج بدمائهم وفضلوه على غيره من المذاهب ، وصمدو عليه رغم الهزات العنيفة التي تعرضوا لها والتي كانت تهدف لاستئصاله من قلوبهم بالحجة والسيف إلا أن ذلك لم يزدهم إلا إصرارا عليه وتمسكا به ، وظل المذهب المالكي هو المذهب المفضل لهم إلى يوم الناس هذا .

ولم يأت هذا التمسك اعتباطا بل كانت له من المبررات ما تشفع هؤلاء عن سر تفضيلهم لهذا المذهب ورغبتهم فيه عن غيره ، وهذه الأسباب تترأسها مرجعيتهم في الإطلاع على فقه السلف ، وعلاقاتهم الوثيقة بقداسة المدينة ، أضيفت إليها ـ من منطلق الإجتهاد البسيط ـ العوامل الآتية :

ب1 ـ شخصية مالك المتميزة :

كانمالك بن أنس يتميز بشخصية متميزة وجذابة جمعت مناقب ومزايا خلقية وعلمية مختلفة استطاع بها أن ينفذ إلى نفوس المغاربة وأن يسيطر على قلوبهم ، فوفدوا عليه وانقادوا إليه وآثروه على من سواه ، ورأوا فيه المنبع الذي لا ينضب والمعين الذي لا ينفذ ، وزاد تمسكهم به الآثار والاقوال الواردة بشأنه وأعلاها قول ×:
{يوشكالناسأنيضربوا أكبادالإبلفيطلبالعلمفلايجدونأعلم من عالم المدينة } ،وقد حمله كثير من العلماء على مالك منهم سفيان بن عيينة قال " نرى أن المراد بهذا الحديث مالك بن انس "[30] ومثله ابن جريج وعبد الرزاق وغيرهم [31] ، وقد خلص القاضي عياض عند تعرضه لهذا الحديث مايفيد أن المقصود هو مالك بن أنس حيث قال " الحديث ألفاظه المتعددة و أسانيده المختلفة وترجيحات العلماء تعني أن المقصود بهذا الحديث هو مالك بن أنس " [32]

كما أغرى المغاربة به شهادة خيرة العلماء له بالعلم والإمامة والصدق والاجتهاد ، من ذلك قول الامام الشافعي رضي الله عنه " إذا ذكر العلماء فمالك النجم ، ولم يبلغ أحد في العلم

---

[30] القاضي عياض:**ترتيب المدارك**،ج1،ص32.
[31] نفسه،ج1،ص33.
[32] القاضي عياض:**ترتيب المدارك**،ج1،ص32-33.

مبلغ مالك لحفظه وإتقانه وصيانته ، ومن أراد الحديث الصحيح فعليه بمالك "[33] وذكره الأوزاعي فقيل له كيف رأيت مالك قال "رأيت رجلا عالما "[34]

وقال أبو حنيفة "والله ما رأيت أسرع منه بجواب صادق وعلم تام "" ، وقال أبو يوسف " ما رأيت اعلم من ثلاثة مالك وابن ابي ليلى وابي حنيفة "[35]

وغيرها من الشهادات التي رفعت قدر مالك في النفوس ، فرحلت لأجله القلوب قبل الأبدان واحيط بالوقار والاحترام ، وقوي حبه في قلوبهم فاتبعوه في كل شيء حتى في سلوكه الخاص من لباس وأكل وكيفية جلوس للإقراء وطريقته في الحديث وغيرها [36].

ب 2 ـ ذكاء مالك في استجلاب قلوب المغاربة:

كان مالك شديد الإعجاب بالطلبة المغاربة لما لمسه فيهم من حب للعلم ورغبة في التلقي وحسن الاقتداء فخصهم بمكانة متميزة وأنزلهم أحسن المنازل [37] من ذلك أنه قام إلى عبد الله بن فروخ المتوفي سنة 185 هـ عندما قدم عليه فأقعده بأحسن مقعد إلى جانبه وقال له " لو تقدم قدومك لعلمت به ولأتيتك "[38] أما علاقته مع عبد الله بن غانم فقد كانت متميزة حتى وجد من قال " شغله المغربي عنا "، بليروى أن مالكا عرضعليه أن يزوجهابنته[39] وكان يأمرهم بتبليغ علمه ويحملهم على نشره في بلدانهم قال لهم " اتقو الله وانشروا هذا العلم وعلموه ولا تكتموه "[40] ولم يتوقف الأمر عند هذا الحد بل كان يتواصل معهم حتى وهم في بلادهم فقد كان يتراسل معهم ليتتبع أخبارهم ويجيبهم عن مسائلهم من نوازل وفتاوى مختلفة

---

[33] نفسه، ج1،ص62.

[34] نفسه، ج1،ص62

[35] نفسه، ج1،ص63.

صحراوي خلواتي:**محاضرات في تاريخ المذهب المالكي في الغرب الإسلامي**،دراسة منشورة www.ahlalhadeeth.comص30.

[36]. إلكترونيا ،الموقع

5إبراهيم القادري بوتشيش:نشأة المدرسة المالكية بالمغرب والأندلس وعلاقة القاضي عبد الوهاب بأعلامها بحوث الملتقى الأول:القاضي عبد الوهاب البغدادي المالكي، ج1،ص285.

[38] خلواتي:المرج السايق،ص61.

[39] خلواتي :محاضرات في تاريخ المذهب المالكي،ص62

[40] عبد الهادي الحسيني:دخول المذهب المالكي إلى بلاد الغرب الإسلامي،مجلة دار الحديث الحسينية، ع1982/3م،المغرب:منشورات فضالة،ص524.

، فهذا ابن فروح يكتب إلى مالك يسأله حول إمكانية الرد على أهل البدع ، وابن غانم القاضي جعل بينه وبين مالك رسولا خاصا .

ب.3-طول عمر هو ملازمته لمدينة الرسول:

أكرم الله مالكا بعمر طويل تجاوز الثمانين سنة قضى منها أكثر من ستين سنة يدرس ويحدث ويفقه ويراجع ويصحح، ساهم هذا الأمر في وصول صيته إلى البلاد النائية وكثرة التلاميذ من حوله بينما عاجلت المنية كثير من منافسيه.

فقد استمر يـؤدي رسالته العلمية مدة تقرب من ثلاثين سنة بعد وفاة أبي حنيفة وثلاثا وعشرين سنة بعد وفاة الأوزاعي وما يقرب من عشرين سنة بعد وفاة سفيان الثوري. كل هذه المدة قضاها مالك في المدينة المنورة لم يغادرها منذ ولد الى أن فارق الحياة الا لأداء مناسك الحج بمكة المكرمة.

كان مكوثه الدائم في المدينة يساهم في لقائه بكل الوافدين من المغرب وغيره للبقاع المقدسة لأداء فريضة الحج فكانوا يجلسون إليه ثم ينقلون ما سمعوه من أحكام وبخاصة ما يتعلق بالعمل، وينشرونه بين أهليهم عند رجوعهم.

ب.4-العلم الغزير الذي جمعه:

أقام الامام مالك مذهبه على أساس علمي متين استغرق منه زمنا طويلا وجلوسا مستمرا لخيرة العلماء والفقهاء وانكبابا عميقا على المراجعة والحفظ والتثبت فقد أملى في مذهبه نحوا من مائة وخمسين مجلدا في الأحكام الشرعية فلا يكاد يقع فرع إلا وتجد له فتيا[41]

وقد حاز قصب السبق في التأليف فكان أول من ألف فأجاد وجمع فأفاد، فخرج كتابه الموطأ الذي نشر الله به علما زاخرا وفهما واسعا لاتزال البشرية إلى يومنا هذا تقتبس من أنواره

[41] محمد المكي الناصري:المذهب المالكي مذهب المغاربة المفضل،مجلة الملحق القضائي، ع1980/3،الرباط:منشورات الساحل،ص8.

وتأخذ من إشعاعاته قال عنه الإمام الشافعي: "ما على الأرض كتاب أصح من كتاب مالك وماكتب الناس بعد القرآن شيئا هو أنفع من موطأ مالك"[42]

وقد سخر الإمام مالك كل هذا لطلبته الوافدين ينور عقولهم ويزكي أفهامهم ويمنحهم ما يستطيعون به نشر الخير والفضائل بين الناس.

ب 5-اعتماده على الكتاب والسنة:

لقد بلغ مالك في معرفة الحديث والسنة مبلغا عاليا لم يدرك منزلته أحد من أئمة المذاهب الفقهية، فقد عاش في البيئة التي عاش فيها الصحابة ولقي عددا هائلا من التابعين، فتلقى عنهم وحفظ فتاويهم وجمع من الأحاديث والآثار والعمل ما جعل مذهبه مذهب أصحاب رسول الله والتابعين.

قال شمس الراعي الأندلسي يتحدث عن مذهب مالك: "ومن وجوه الترجيح لمذهب مالك كونه مذهب أكثر أصحاب رسول الله والتابعين له في مدينته عليه الصلاة والسلام لأنها مهبط الوحي ودار العلم "[43]

اعتبر المغاربة المذهب المالكي أرجح المذاهب حجة وأقواها أدلة وأصحها أصولا وأثبتها مسلكا وأولاها بالإتباع.

ب 6-ملائمة المذهب المالكي للمغاربة:

المذهب المالكي هو اكثر المذاهب ملائمة لعقلية المغاربة لسهولته وبساطته وخلوه من التعقيدات الكلامية، والمغاربة بطبعهم فطريون يميلون للبساطة والوضوح وينفرون من كل ما هو غامض ومعقد، لهذا ابتعد الإمام مالك بن ابراز طريقة الجدل للإفريقيين خوفا من أن يؤدي ذلك الى تفريق الأمة الإسلامية المغربية الهشة فحسم الباب [44] . ولعله السبب في رفضهم لفكر الخوارج وعقيدة الشيعة رغم المحاولات الملحة التي بذلها أنصار هاتين

---

[42] القاضي عياض:ترتيب المدارك، ج1،ص101.

[43] محمد بن محمد بن الراعي الأندلسي:انتصار الفقير السالك لترجيح مذهب الإمام مالك،تحقيق:محمد أبو الأجفان،ط1،لبنان:دار الغرب الإسلامي،1981م،ص200.

[44] المالكي :رياض النفوس، ج1،ص177.

العقيدتين ردحا من الزمن. والمذهب المالكي يعتمد على النص والنقل وعلى الأثر والراوية أكثر من اعتماده على الرأي والجدل، بالإضافة إلى أنه يتميز بكثرة مراعاته لأعراف الناس وعاداتهم، فهو عملي أكثر منه نظري.

وجد المغاربة في مرونته وواقعيته واستقاء جميع أصوله من النص الشرعي ما أغراهم به، فاتبعوه وفضلوه على ما سواه ، فصار عندهم عادة وفطرة لا تحتاج إلى دليل [45]

ب.7-تشابه البيئتين (الحجاز والمغرب):

فبين بلاد الحجاز وبلاد المغرب تشابها ملفتا لاسيما في المناخ وطباع الناس،وهناك من يذهب إلى وجود صلات قديمة بين أهل المغرب الأصليين والعرب اليمنيين ويدل على ذلك تشابه العمران والوثائق والكتابات التي عثر عليها[46]كما يشير إلى ذلك ابن خلدون "وأما مالك رحمه الله تعالى فاختص بمذهبه أهل المغرب والأندلس... وأهل المغرب جميعا مقلدون لمالك رحمه الله ،وقد كان تلاميذه افترقوا بمصر والعراق"[47]مشيرا في هذا المضان إلى المدرستين المصرية والعراقية في الحديث ومدى تأثيرهما على الرحالة المغاربة ،على الرغم من اتخاذهم في أغلب الأحيان قبلة الحجاز مقصدا للتشبع بالعلوم الدينية ومجاورة قبر النبي عليه الصلاة والسلام،ثم يبرر المفكر اليمني اقبال المغاربة بغزارة على المذهب المالكي باعتبار عامل البداوة المشترك بين أهل الحجاز و

---

[45] أبي العباس أحمد بن يحي الونشريسي:المعيار المعرب والجامع المغرب عن فتاوي أهل افريقية و الأندلس والمغرب،نشر:حمد حجي،المغرب:منشورات وزارة الأوقاف والشؤون الدينية المغربية،دار الغرب الإسلامي،ج2،ص169.

[46]

[47] ابن خلدون،أبو زيد عبد الرحمان:ديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر،مراجعة :سهيل زكار وخليل شحادة،لبنان:دار الفكر ،2001،ج1،ص568.

أهل المغرب والأندلس[48]، وهو الأمر نفسه الذي يبرر به المستشرقون تغلغل المالكية في الأوساط البربرية بسيطة الذهنية[49]، " فالبداوة كانت غالبة على أهل المغرب والأندلس ولم يكونوا يعانون الحضارة التي لأهل العراق فكانوا إلى أهل الحجاز أميل بمناسبة البداوة، ولهذا لم يزل المذهب المالكي غضا عندهم (أي شديدا) ولم يأخذه تنقيح الحضارة وتهذيبها كما وقع في غيره من المذاهب "[50] ثمّ يضيف " فالأثر أكثر معتمدهم وليسوا بأهل نظر وأيضا فأكثرهم أهل الغرب وهم بادية غفل من الصنائع إلا في الأقل "[51] مرجحا بهذه الشهادة إلى نسب التقليد عندهم، والتقليد في عرف المتكلمين هو " قبول قول كل من لم يقم على قبول قوله برهان "[52].

يرصد صاحب المقدمة لنا حشدا من الفقهاء المالكية الذين تركوا بصماتهم في تاريخ الحركة الفقهية بالمنطقة[53]، ويرد منبعها إلى مصر أمثال ابن القاسم والفقيه أشهب وابن عبد الحكم والحارث بن مسكين هؤلاء أسسوا الركيزة التي انطلق منها الأندلسيون والإفريقيون ابتداء من يحيى بن يحيى الليثي وعبد الملك بن حبيب والعتبي وأسد بن الفرات والإمام سحنون وابن أبي زيد القيرواني وغيرهم ويستشف من منطوق خطاب ابن سحنون أنّ الفقه المغربي لطالما ارتبط بشقه المشرقي لكنه يستقل عنه في المغرب مع الإمام سحنون وفي الأندلس مع العتبي (العتبية)والإمام عبد الملك بن حبيب خاصّة في إدخالهم تعديلات على مستوى بعض المسائل ورفض البضاعة المشرقية على حالها، ثمّ يعود الانقباض إلى المعرفة والاتجاه المشرقي خلال القرن السابع للهجرة مع دخول كتاب أبي عمرو بن الحاجب الملخص للمذاهب الفقهية السنية من مصر إلى المغرب بجلب من أبي علي الناصر الدين الزواوي إلى بجاية، فانتشر في المغرب كلّه[54].إنّ المتصفح في قضية استقلالية المغرب الإسلامي عن مشرقه يتبادر له بكل وضوح أن الأسدية لصاحبها أسد بن الفرات كانت مظهرا من مظاهر الانقياد بالدولة المصرية، بينما الإمام سحنون في " المدونة والمختلطة " كان بمثابة النجم الإفريقي الساطع في الفقه المالكي المغربي.

يرى ابن حزم أنّ أهم أسباب انتشار المذهب المالكي بالغرب الإسلامي هو مساندة السلطان ودعمه حيث يقول " مذهبان انتشرا في بدء أمرهما بالرئاسة والسلطان مذهب أبي

---

[48]- يمكن اعتبار عامل البداوة من أحد المؤثرات الداخلية التي ساهمت في تدفق البربر والأندلسيين نحو مذهب الامام مالك،إلا أنّ الفيصل الفعلي في ذلك عامل خارجي متمثل في كثرة الرحلة الفقهية إلى مصر والحجاز خاصّة، وفي هذه الحالة لا تستثنى الأندلس التي لم ترق إلى رف الحضارة إلا مع تدشين الدولة الأموية حياتها الثانية بأرضها، المصدر نفسه ج1، ص 568.

[49]- يشكل ألفرد بل في هذا المجال أبرز المستشرقين المتخصصين في المذهبية الدينية للمغرب الإسلامي ككل.

[50]- المصدر نفسه ج1، ص 568.

[51]- المصدر نفسه ج1، ص 578.

[52]- أبو محمد علي بن أحمد بن عبد الله بن سعيد ابن حزم الظاهري الأندلسي: تفسير ألفاظ تجري بين المتكلمين في الأصول، ضمن مجموع رسائله، تحقيق: إحسان عباس، ط1، لبنان: منشورات المؤسسة العربية 1983م، ج4 ص 414.

[53]- ابن خلدون: العبر ج1، ص 568-569.

[54]- المصدر نفسه، ص 570،571.

حنيفة فإنّه لمّا ولي القضاء أبو يوسف كانت القضاة من قبله من أقصى المشرق إلى أقصى عمل إفريقية، فكان لا يوّلي إلا أصحابه والمنتسبين إلى مذهبه ومذهب مالك عندنا بالأندلس فإنّ يحيى بن يحيى كان مكينا عند السلطان مقبول القول في القضاة، وكان لا يولي قاض في أقطار بلاد الأندلس إلا بمشورته واختياره، ولا يشير إلا بأصحابه ومن كان على مذهبه، والنّاس سراع إلى الدنيا فأقبلوا على ما يرجون بلوغ أغراضهم به "[55].

ويذكر بعض المؤرخين ان مالكا سأل بعض الأندلسيين عن سيرة ملك الأندلس، فوصف له سيرته قائلا "إنّه يأكل الشعير ويلبس الصوف ويجاهد في سبيل الله، فقال مالك ليت الله زيّن حرمنا بمثله، فلمّا وصل الخبر ملك الاندلس حمل النّاس على مذهبه وترك مذهب الأوزاعي "[56].

والمتأمل في تاريخ المذهب المالكي بالمغرب يجد أنّه كان يتلقى الدعم ويحضى بالقبول عند جميع الدول الحاكمة، فيما عدا دولة الموحدين التي عملت على استئصاله ومحاولة قطعه من جذوره، أمّا غيرها فقد كانت تلزم النّأس التمذهب به وتحارب الخارجين عنه، إلى درجة أنّ دولة المرابطين جعلت المذهب المالكي حركة تقود نضالهم لتحقيق جملة من الأهداف والغايات[57].

أضف إلى ذلك المكانة المرموقة التي كان يحتلها علماء المغرب في نفوس السلاطين، حيث كانوا يقربونهم ويستشيرونهم في أهم قضايا الدولة، فهذا علي بن زياد التونسي يقدُم إلى منزله والي إفريقية ومعه رسول الخليفة العباسي ليستشيره فيمن يستحق تولية القضاء بإفريقية.ويروى أنّ الإمام إدريس مؤسس دولة الأدارسة كان على مذهب مالك، ودعى النّاس للإخذ به واباع منهجه، وجعله مذهبا رسميا للدولة، وقال " نحن أحق باتباع مذهب مالك وقراءة كتابه الموطأ "[58].

كما منحت أهم المناصب للفقهاء المالكية فقد شغل كبار تلاميذه بعض المناصب العامّة مثل يحيى بن يحيى وسحنون الذيتولى منصب القضاء وولّى على يديه كثير من الفقهاء خطة القضاء، بل أكثر من ذلك فقد كان عدد من السلاطين يحسبون في عداد علماء الفقه المالكي أمثال يحيى الأول المتوفى سنة 249هـ، ويحيى الرابع المتوفى سنة 304هـ،

---

[55]- ابن عذارى المراكشي: بيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، تحقيق: ج س كولان وليفي بروفنسال، لبنان: منشورات دار الثقافة ج2، ص10.

[56]- صحراوي: محاضرات في تاريخ المذهب المالكي في الغرب الإسلامي، ص34.

[57]- عباس الجراري: أسباب انتشار المذهب المالكي واستمراره بالمغرب، مجلة دعوة الحق، ع1982/224م، الرباط: منشورات وزارة الأوقاف والشؤون الدينية، ص38.

58- مصطفى أحمد علي القضاة: مدرسة المغرب الأقصى ومظاهر استمدادها من المدرسة الأولى، بحوث الملتقى الأول " القاضي عبد الوهاب البغدادي المالكي " ج1، ص361.

وأبو عنان المتوفى سنة 759هـ وغيرهم[59]، وكانت المراسيم والكتب تصدر إلى القضاة والمفتين تحضّهم على التمسك بمذهب مالك وتحذرهم الخروج عنه، وقد جاء في كتاب المستنصر بن عبد الرحمان الناصر المتوفى سنة 366هـ ما نصّه " من خالف مذهب مالك بالفتوى وبلغنا خبره أنزلنا به من النكال ما يستحقه، وجعلناه عبرة لغيره، فقد اختبرت فوجدت مذهب مالك وأصحابه أفضل المذاهب، ولم أر في أصحابه ولا فيمن تقلد بمذهبه غير معتقد للسنة والجماعة، فليتمسك النّاس به ولينهوا أشدّ النهي عن تركه ففي العمل بمذهبه جميع النجاة ".

8- الرحلة بين المغرب وبلاد الحجاز:

لعبت الرحلة دورا هاما في نشر المذهب المالكي بالغرب الإسلامي، ذلك لأنّ بلاد الحجاز هي مقصدهم لأداء فريضة الحج وزيارة قبر الرسول صلى الله عليه وسلم، وهي أيضا ممرهم للبلاد النائية لا يعبرون لبلاد المشرق إلا عن طريقها، فكانت منتهى سفرهم، وقد أكّد ابن خلدون على هذه المعاني حيث قال "وأمّا مذهب مالك رحمه الله تعالى فاختص بمذهبه أهل المغرب والأندلس، وغن كان يوجد في غيرهم إلاّ أنّهم لم يقلدوا غيره إلاّ في القليل لما أنّ رحلتهم كانت غالبا إلى الحجاز وهو منتهى سفرهم، والمدينة يومئذ دار العلم، ومنها خرج إلى العراق، وشيخهم يومئذ وإمامهم مالك بن أنس وشيوخه من قبله وتلاميذه من بعده، فرجع إليه أهل المغرب والأندلس وقلّدوه دون غيرهم من لم تصل إليهم طريقتهم "[60]والجيل الأول من المغاربة رحل إلى مالك تاركا وراءه المال والأولاد مفضلا الرحلة لطلب العلم والمكوث إلى جانب مالك ينهلون من عمله ويفيدون من عطاءاته.

أمّا الجيلالثاني فلم يرحل إلى مالك إلاّ بعد التتلمذ على الجيل الأول أمثال يحيى بن يحيى الذي لم يرحل إلى مالك إلاّ وهو فقيه وقد بلغ ثمان وعشرين سنة[61] وعبد الملك بن حبيب الذي رحل وهو عالم أديب فقيه[62].

والملاحظ أنّ الرحالة من العلماء كانوا يعنون من رحلتهم طلب العلم للعودة به إلى أوطانهم يعلمونه الطلبة وينفعونهم به، وهي رحلة أقسى من سابقاتها لأنّها تقتضي التنقل بين بلدان الوطن الواحد لنشر العلم وتعليم المذهب.

قال ابن الحكم " لم يقدم علينا من الاندلس أحد أعلم من القاسم بن محمد، ولقد عاتبته في حين انصرافه إلى الأندلس وقلت لهأقم عندنا فإنّك تعقد هاهنا الرئاسة ويحتاج النّاس إليك،

---

[59]- المرجع نفسه، ص377.

[60]- ابن خلدون: العبر ج1، ص 449. يراجع في هذه المسألة كتب الطبقات والتراجم الإفريقية من ق 2-5هـ.

[61]- القاضي عياض: ترتيب المدارك ج1، ص311.

[62]- المرجع نفسه، ص382.

فقال لابدّ من الوطن "[63]، فرغم تحول هذا الراحل من طالب للعلم إلى شيخ جليل مطلوب لدرجة أنّ فقيها عظيما مثل ابن عبد الحكم يصرّ عليه بالبقاء ويضمن له المنصب الرفيع إلاّ أنّه يصرّ على العودة لتبليغ رسالة كان ندب نفسه لتحصيلها.

9- مناهضة المذهب للشبهات والبدع والفرق الضالة:

كان مالك وأصحابه ينفرون من أهل الشبه والبدع ويردونهم بأقسى الأجوبة وأشنج الأساليب فقد قال عنهم 'لبئس القوم لا يسلم عليهم واعتزاهم أحبّ إليّ " وروى ابن وهب أنّ مالكا كان إذا جاءه بعض أهل الأهواء يقول 'أمّا أنا فإنّي على بينة من ربي وأمّا انت فشاك فاذهب إلى شاك مثلك فخاصمه " والمغاربة معروفون بحساسيتهم المفرطة اتجاه السنة وتتبع أثارها، وكرههم العنيف لأهل البدع والأهواء، وتقززهم ونفورهم من الفرق الضالّة التي كانت تسعى لتشويه الدين وعرضه في أسوأ الصور، لذلك أثلج صدورهم علماء المذهب المالكي وهم يقتلعون مذهب الخوارج الذي تسرب إلى المغرب منذ أوائل القرن الثاني للهجرة على يد بعض خوارج العراق[64].

ج- مكانة المدونة في الفقه المالكي:

1- أصل المدونة:

إنّ أول من شرع في تصنيف المدونة أسد بن الفرات الفقيه المالكي، حيث ذكر بعض الفقهاء المالكية أنّ ابن الحاجب الفقيه المالكي النحوي واسمه عثمان قال:إنّ أسد الدين بن الفرات الفقيه المالكي جاء من المغرب إلى مصر[65] وكان ذلك سنة 172 حسب قول المالكي، حيث سمع من ابن القاسم ومالك، قيل: لمّا فرغ من سماع مالك قال له: زدني فقال له:حسبك ما للنّاس وكان مالك إذا سئل عن مسألة كتبها أصحابه فيصير لكل واحد سماع مثل سماع ابن القاسم فرأى أسد أمر يطول عليه ويفوته ما رغب فيه من لقي الرجال والرواة فرحل إلى العراق، وقال سليمان: سأل مالكا يوما عن مسألة فأجابه ثمّ أخرى فأجابه ثمّ أخرى فأجابه ثمّ أخرى فقال له: حسبك يا مغربي إن أحببت الرأي فعليك بالعراق فارتحل إلى محمد ابن الحسن ولازمه[66]فكتب أسد بن الفرات عن أصحاب أبي حنيفة أولا ثمّ انتقل إلى مذهب مالك وكتب عن ابن القاسم في سائر أبواب الفقه[67] بعد ملازمته إياه في مصر وقال:أيّها النّاس إن كان مالك قد مات فهذا مالك ولا يزال ابن القاسم وهو يجيبه حتى دون

---

[63]- صحراوي: محاضرات في تاريخ المذهب المالكي في الغرب الإسلامي، ص37.

[64]- صحراوي: محاضرات في تاريخ المذهب المالكي في الغرب الإسلامي، ص37.

[65]- سحنون: المدونة الكبرى لإمام دار الهجرة الإمام مالك بن أنس الأصبحي، ج15، ط1، د.م،د.ب، د.ت،، ص472.

[66]- سحنون: المدونة الكبرى لإمام دار الهجرة الإمام مالك بن أنس الأصبحي المتوفى سنة (179هـ) ج1، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت 1994، ص104.

[67]- ابن خلدون: المقدمة، www.al-mostafa.com، ص502.

ستين بابا وسماها الأسدية[68]، قال سحنون عليكم بالمدونة فإنّها كلام رجل صالح ورأيه[69] وعندما عزم أسد بن الفرات على الرحيل إلى إفريقية، ثار عليه أهل العلم بمصر، فسألوه في كتبه أن ينسخوها فأبى عليهم، فقدموه إلى القاضي بمصر، فقال لهم القاضي: " وأي سبيل لكم عليه؟ رجل سأل رجلا فأجابه وهو بين أظهركم فسلوه كما سأله "[70].

2- ما اشتملت عليه الأسدية:

إنّ المدونة او الأسدية هي في الأصل أسئلة سأل عنها أسد بن الفرات ابن القاسم فأجابه عنها وجاء بها إلى القيروان وهي في تأليفـعلى ما جمعه أسد بن الفرات أولا وبوّبه على ترتيب التصانيف غير مرتبة المسائل ولا مرسمة التراجم[71]، ومن المعروف أنّ الأسدية "أوّل كتاب يؤلف في الفقه المالكي بعد الموطأ " ويحتوي على ستين كتاب، وكان لأسد وجهة نظر في التفكير في صياغة منهج فقهي جديد[72]، فبعد عودته من العراق إلى مصر أراد أن يجمع بين الفقه المالكي والفقه العراقي فأتى بالمسائل التي اشتملت عليها كتب محمد بن الحسن فيقارنها بأراء مالك فيها فيجتمع له الفقهان ولما لم يجد مالكا إذ كان قد توفاه الله اختار تلاميذه الذين عرفوا بطول ملازمته وصدق الرواية وحسن التخريج على أصوله فانتهى إلى عبد الرحمان بن القاسم[73] وكانت إجابات ابن القاسم على أربع أنواع:

أحدهما ما علم فيه رواية عن مالك واستيقنها فهذا بذكر روايته.

وثانيهما ما ترجح عنده فيه رواية وهذا يقول:فيها أخال أو أظنّ أو أحسب وليس ذلك النوع قدرا قليلا.

وثالثها ما لا يحفظ فيه عن مالك قولا لا باليقين ولا بالرجحان ولكن يحفظ له مثيلا، فيحكم فيه بمثل ما حكم به مالك في المثل.

ورابعهما ما لا يحفظ فيه مالك رواية ولم يرد مثله[74].

إذن هو نهج نجح فيه أسد إلى حد كبير بعد ان أقنع ابن القاسم في تنزيل آراء مالك على مسائل الحنفية مخرجا إلى الوجود أول نص فقهي مالكي الآراء حنفي المنهج، وإذا

---

[68]- سحنون: المصدر السابق، ج1، ص104.

[69]- ابن فرحون: الديباج المذهب في معرفة أعيان علماء المذهب، تحقيق: مأمون بن محي الدين الجنان، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت 1996، ص161.

[70]- محمد زينهم محمد عزب: الغمام سحنون، تقديم: حسين مؤنس دار الفرجاني، لندن – القاهرة – طرابلس 1992، ص182.

[71]- سحنون: المصدر السابق، ج15، ص472.

[72]- محمد إبراهيم علي: اصطلاح المذهب عند المالكية، ط1، دار البحوث للدراسات الإسلامية وإحياء التراث، الإمارات العربية المتحدة 2000، ص118.

[73]- عبد الرقيب صالح محسن الشامي: " آراء مالك الأصولية من خلال كتاب المدونة الكبرى (كتاب النكاح) رسالة ماجستير مطبوعة، جامعة أم درمان الإسلامية، كلية الدراسات العليا كلية الشريعة والقانون، قسم أصول الفقه 2009، ص99.

[74]- محمد أبو زهرة: مالك حياته وعصره – آراؤه وفقه، ط2، دار الفكر العربي، د.ب،د.ت، ص266.

كانت فكرة أسد لم يكتب لها الحياة طويلا، فليس ذلك لوهن في الفكرة نفسها، بل هو في حقيقته يرجع إلى تباين منهجي بين تيارين لم تؤثر فيه الأطماع الشخصية إلاّ بقدر تأثر النفس الإنسانية بالنجاح أو الإخفاق[75].

وعليه فبعد أن ارتوى أسد من منهل الفقه المالكي عاد إلى المغرب يحمل ستين كتابا تنطوي على ست وثلاثين ألف مسألة فقهية وقد سمى مجموعها بالأسدية[76] وهذا بعد أن ترك نسخة منها بمصر[77].

3- تلقى سحنون للأسدية ومراجعة ابن القاسم فيها:

لقد ازدحم أهل العلم في المغرب على مجلس أسد يأخذون من علمه الفيّاض ويستنسخون كتابه ومن هؤلاء كان سحنون... [78]. حيث كان هذا الأخير ومحمد بن رشيد يكتبانها، فلمّا سمع أسد بذلك شخ فبقى على سحنون كتاب القسم فأبى أن يعطيه، فتحيّل سحنون حتى أتما ثمّ سافر سحنون إلى ابن القاسم[79]، قال القاضي عياض: " وقد حكيأنّ سحنون لمّا ورد على ابن القاسم سأله عن أسد فأخبره بما انتشر من علمه في الآفاق فصرّ بذلك، ثمّ سأله واحله ابن القاسم من نفسه بمحل وقال له سحنون: أريد أن أسمع منك كتب أسد فاستخار الله وسمعها عليه وأسقط منها ما كان يشكّ فيه من قول مالك، وأجابه فيه على رأيه وكتب إلى أسد وقال لابن القاسم، أنا صيرتك ابن القاسم، ارجع عما اتفقنا عليه إلى ما رجعت أنت الآن عنه "[80]، فبعد لقائه بابن القاسم وأخذ عنه وعارضه بمسائل الأسدية فرجع عن كثير منها وكتب سحنون مسائلها ودوّنها واثبت ما رجّح عنه، فترك النّاس كتابه واتبعوا مدوّنة سحنون على ما كان فيها من اختلاط المسائل في الأبواب فكانت تسمى المدونة والمختلطة[81].

عاد سحنون إلى المغرب وعلى يده كتاب ابن القاسم إلى أسد بن الفرات يقول فيه يقابل نسخته بنسخة سحنون، فالذي تتفق عليه النسختان يثبت والذي يقع فيه الاختلاف فالرجوع إلى نسخة سحنون ويمحى من نسخة بن الفرات فهذه هي الصحيحة، فلمّا وقف بن الفرات على كتاب ابن القاسم[82]همّ بإصلاحها، فردّه عن ذلك بعض أصحابه وقال لا تضع قدرك تصلح كتبك من كتبه وانت سمعتها قبله؟ فترك ذلك، وذكر أنّ ذلك بلغ ابن القاسم فقال: " اللهم لا تبارك في الأسدية "، قال الشيرازي: " فهي مرفوضة إلى اليوم " واقتصر

---

[75]- محمد إبراهيم علي: المرجع السابق، ص118.

[76]- سعدي أبو حبيب: سحنون مشكاة نور وعلم وحق، ط1، دار الفكر، دمشق 1981، ص32.

[77]- محمد أبو زهرة: المرجع السابق، ص266.

[78]- سعدي أبو الحبيب: المرجع السابق، ص32.

[79]- سحنون: المصدر السابق، ج1، ص104.

[80]- محمد زينهم محمد عزب: المرجع السابق، ص184.

[81]- ابن خلدون: المصدر السابق، ص502.

[82]- سحنون: المصدر السابق، ج15، ص472-473.

الدّاس على التفقه من كتب سحنون، ونظر سحنون فيها نظرا آخر فهذّبها وبوّبها ودوّنها وذيّل أبوابها بالحديث والآثار[83] وسئل أشهب من قدم إليكم من المغرب؟ قال: " سحنون " قيل له: " فأسد؟ " قال: " سحنون والله أفقه منه بتسعة وتسعين مرّة "[84].

عكف أهل القيروان على هذه المدونة التي استطاع من خلالها الإمام سحنون أن يربط تلك الفروع بأصولها في مدونته نتيجة إحاطته بأصول إمامه تلك الإحاطة التي ورثها عن شيخه علي بن زياد، ولماها وصقلها على شيخه الآخر ابن القاسم[85]، وعنه انتشر مذهب مالك رضي الله تعالى عنه وعلمه بالمغرب[86]؛ كما أنّ بن أبي زيد اختصر المدونة والمختلطة في كتابه المسمى " بالمختصر " ولخصه أيضا أبو سعيد البرادعي من فقهاء القيروان في كتابه المسمى " التهذيب "[87] واعتمده المشيخة من أهل إفريقية وأخذوا به وتركوا ما سواه[88]، فكتب أهل إفريقية على المدونة ما شاء الله أن يكتبوا مثل: يونس واللخمي وابن محرز التونسي وابن بشير...[89]

وبذلك استفاد الفقه المالكي من عمل أسد وسير سحنون على مناهجه، " كثرة التفريع وربط المسائل بعضها ببعض " والمدونة تمثل آراء مالك المروية وآراء أصحابه وتخرج ابن القاسم على أصول مالك وهي قد سميت أيضا السبيل لتخريج المسائل على أصول مالك

---

[83]- عبد الرقيب صالح محسن الشامي: المرجع السابق، ص79.

[84]- الدباغ: معالم الإيمان في معرفة أهل القيروان، تحقيق محمد الأحمدي أبو النور ومحمد ماضور، مكتبة الخانجي، مصر – المكتبة العتيقة، تونس، د.ت، ج2، ص81-82.

[85]- محمد المختار محمد المامي: المذهب المالكي مدارسه ومؤلفاته خصائصه وسماته، ط1، مركز زايد للتراث والتاريخ، الإمارات العربية المتحدة 2002، ص96.

[86]- سحنون: المصدر السابق، ج15، ص473.

[87]- ابن خلدون: المصدر السابق، ص502.

[88]- سحنون: المصدر السابق، ج15، ص107.

[89]- محمد أبو زهرة: المرجع السابق، ص258.

ونسبتها على هذا الاعتبار وبذلك فتح باب التخرج في ذلك المذهب العظيم الأول والتخريج في المذهب سبيل نموه وأساس شمول أحكامه[90].

وتميزت المدونة الكبرى بـ:

سهولة الأسلوب، حسن تنسيق الألفاظ ورصانة العبارات إذ رتبت ترتيبا وصنفت إلى أبواب وفصول، فكان بذلك سحنون بمثابة أديب وفقيه وعالم وثقة، عارف بأحكام أمور الدين عادل في فتاويه، هذا ما دفع الكثير من أهل إفريقيا والمغرب والأندلس لدراسة المدونة في المؤلفات المالكية الأخرى، وبذلك ظلت المدونة مدّة في المساجد والمجالس والحلقات العلمية في إفريقيا والمغرب والأندلس حتى جاءت الدولة الفاطمية التي عملت لكل ما لديها من قوة للتصدي لأصحاب المدونة ولكنها فشلت فشلا ذريعا[91] نظرا لقوة إيمان أصحابها ومدى تشبث النّاس بها، فهي بالفعل دستور شريعة للمسلمين وبالخصوص لدى المغاربة.

[90]- محمد أبو زهرة: المرجع السابق، ص267.

[91]- محمد زينهم محمد عزب: المرجع السابق، ص186.